

الأرمني في تحقيق خطته التوسعية فيما يتعلق بالأراضي الأذربيجانية، حيث أنه في المحصلة النهائية لن تحمل مثل هذه السياسية النجاح إلى يريفان، حيث أن الحلول طويلة المدى للقضايا القائمة، لا يمكن أن تتم إلا على أساس حسن الجيرة والحوار البناء مع الجيران. وفي أسوأ الحالات، فإن الأفضلية المؤقتة التي اكتسبها الأرمن في المرحلة الأولية للنزاع حول قاراباغ، سوف تتلاشى عاجلاً أم آجلاً، مثلها مثل السراب الذي يتلاشى في الصحراء، أما فيما يتصل بأفق إقامة «أرمينيا العظمى»، فهذا الأمر؛ كما أشار إليه المؤرخ الجورجي بصورة عادلة؛ يتمتع بفرصة لتحقيقه تساوى فرصة إعلان عاصمة الدولة سانت بطرسبورج (7، ص 20).



مخيم اللاجئين و النازحين في القطارات للشحونات. كما مُنع نشر المعلومات عن وجود مثل هذه «المناطق السكنية» في الصحافة السوفيتية

المراجع

1. أ.ب. شيف ياكين. لغز انهيار الاتحاد السوفيتي. تاريخ المؤامرات والخيانات. موسكو، 2004.
2. تاريخ الشعب الأرمني منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. يريفان، 1980.
3. سفانتى كورنيل. النزاع في قاراباغ: تطور وآفاق الحلول. من كتاب أذربيجان وروسيا: المجتمع والدولة، موسكو، 2001.
4. <http://forum.aztop.com/lofiversion/index.php/t8722.html>
5. <http://forum.hayastan.com/lofiversion/index.php/t9888.html>
6. انظر: تاريخ الشعب الأرمني منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا. يريفان، 1980.
7. ج. منجال زاده. النزاع العسكري بين جورجيا وأرمينيا في عام 1918 والأوضاع الحالية. من كتاب: السكان المتحدثون بالأرمنية في كل جورجيا والجوانب والقضايا الخلفية لإحياء نظام الدولة الجورجي الموحد. تبيليسي، 2006.
8. التعداد وتركيب السكان في الاتحاد السوفيتي. طبقاً لمعطيات تسجيلات السكان في عموم الاتحاد عام 1979. موسكو، 1985.

إلى ترويج أفكار «جمع الشمل» (الفكرة القائمة على أساس مطالب الأرمن لضم قاراباغ الجبلية) بين مواطني أذربيجان من القومية الأرمينية. وقد جرى كل هذا في ظل السماح التام لقيادة أذربيجان السوفيتية، مما دعم على نحو أكبر اعتقاد الأرمن في فرصة اقتطاع الأراضي الأذربيجانية، والأكثر من ذلك دفعهم نحو المواجهة المكشوفة في فبراير 1988.

وعلى هذا النحو قام الجانب الأرمني بإعداد تأسيسي لإدارة النزاع في قاراباغ على الصعيد المعلوماتي الدعائي، وكذلك على الصعيد العسكري. وخلافاً للأرمن، فإن النزاع الذي اندلع في قاراباغ قد دام الأذريين بصورة مباغتة، حيث أن المعلومات حول الخطط التوسعية للتنظيمات الأرمينية القومية في ذلك الوقت لم تكن متاحة سوى لدى قيادة أذربيجان. وقد ظلت تلك القيادة محتفظة بالاطمئنان الأولمبي، حتى بعد أن أصبح جلياً للجميع حتمية وقوع هذا النزاع. وقد منح كل هذا الجانب الأرمني تفوقاً كبيراً، واستطاع بمهارة وإلى أقصى حد استغلال ذلك التفوق في سياق العمليات العسكرية التي جرت في قاراباغ عبر السنوات 1988-1994.

غير أنه لا ينبغي المبالغة في تقدير النجاح المؤقت للجانب



نقل الأدب الدعائي و المواد المتفجرة من أرمينيا الى قراباغ بشكل خفي

وقد أصبحت قرارات المؤتمر 23 لحزب دشنكتستيون بمثابة توجيه لبدء العمل. زد على ذلك أنه في أول الأمر انهارت العرائض الدعائية بصورة نشطة. وعلى وجه الخصوص، ومع بداية سياسة البريسترويك للكرملين، «انهمر» العديد من طلبات الأرمين المناهية بضم إقليم قاراباغ وناختشوان إلى أرمينيا. وعلى وجه الخصوص ذلك الالتماس التي تم إعادته في أغسطس لعام 1987 من قبل أكاديمية علوم أرمينيا، والذي تضمن طلب ضم ناختشوان أيضاً وليس فقط قاراباغ الجبلية إلى أرمينيا السوفيتية (3، ص 438-439). وفي ظل هذا الأمر فإن الأرمين لم يبنزجوا على الإطلاق من حقيقة أن تعداد السكان في الاتحاد السوفيتي لعام 1979، يفيد أن 97% من سكان ناختشوان يتشكلون من الأذربيين، فقط -1.4% من الأرمين (8، ص 126).

وتحديداً، يمكن اعتبار صيف عام 1987 نقطة الانطلاق لاندلاع النزاع الحالي في قاراباغ، حيث أنه في ذلك الوقت قام آلاف الأرمين بالتوقيع على عرائض مماثلة. بالإضافة إلى أن الدعاية لتجميع التوقعات لم تجر فقط بين السكان الأرمين في إقليم قاراباغ الجبلي، بل أيضاً في غيره من المناطق الأخرى لأذربيجان السوفيتية. ومن حيث الجوهر فقد تحولت هذه الدعاية

بشبكة عريضة متشعبة في مختلف بلدان العالم من التنظيمات العسكرية- الرياضية، والتي انضم إلى أنشطتها آلاف الشباب من الأرمين «5». وقد جرى الإعداد المكثف للمقاتلين بين صفوفهم، وذلك لأجل التشكيلات العسكرية للحزب، والتي اشتركت لاحقاً بصورة نشطة في حرب قاراباغ. وفي هذا الإطار فليس من المدهش أنه في بداية النزاع حول قاراباغ في نهاية ثمانينات القرن العشرين، كان الجانب الأرميني يتمتع ببناء عسكري جيد خلافاً للأذربيين.

وكانت أكثرية أعضاء تلك التشكيلات تتمتع بخبرة كبيرة في بداية النزاع في قاراباغ، وذلك عندما شاركت على الأرض في العمليات ضد الدبلوماسيين الأتراك، التي اندلعت خلال سبعينيات- ثمانينيات القرن العشرين في العديد من بلدان أوروبا وأمريكا. وهكذا، و فقط منذ عام 1975 إلى عام 1985 نفذ الأرمين أكثر من 200 عمل إرهابي ضد الدبلوماسيين الأتراك «4» ومع إلغاء «الحقد الفولادى» ونتيجة للبرسترويك، تدفقت أعداد كبيرة من المبعوثين والمقاتلين الدشناك إلى أرمينيا السوفيتية في البداية، وبعد ذلك إلى المناطق المأهولة بالأرمين في أذربيجان السوفيتية.

وكإشارة غير مباشرة لبداية تنفيذ خطط التوسع الإقليمي للأرمين على حساب الأراضي الأذربيجانية، خرجت قرارات المؤتمر 23 لحزب دشنكتستيون، الذي عُقد في عام 1985 في مدينة أئينا عاصمة اليونان. وعند الشعور باقتراب انهيار الاتحاد السوفيتي رأى القادة الدشناك أن اللحظة المواتية لتحقيق هذا الأمر قد حانت.

ومن المثير للاهتمام الإشارة إلى أنه في جدول أعمال المؤتمر 23 لحزب دشنكتستيون لم يُطرح سوى قضية واحدة هي: توسيع أراضي أرمينيا. وكما يشهد الباحث الجورجى جورام منجال زاده، فإن الاتجاه التركي في المؤتمر لم يُنظر إليه على الإطلاق. ولم تكن هناك سوى قضية واحدة اختلفت عليها الأصوات بين نواب المؤتمر، وهي- من أى اتجاه يبدأ التوسع لأراضي أرمينيا: من الشمال (أذربيجان) أو من الغرب (جورجيا). وبعد جدل طويل كان إجماع الأصوات قد صب نحو اتخاذ القرار ببدء الهجوم نحو قاراباغ (أذربيجان) (7، ص 18-19).

الثقافية والبحثية، ومؤسسات النشر. ويغض النظر عن أنه يمثل فقط جزءاً صغيراً من الأقليات الأرمنية الأعضاء في دشنكتستيون (حوالي عشرين ألف فرداً تقريباً)، إلا أن هذا الحزب بفضل تأثيره الواسع عبر الكنائس ومنظمات الأعمال الخيرية والكشافة، والتنظيمات الشبابية، والنسائية، والثقافية، يقوم بهدف محدد في تنشئة شباب الأرمن وجيل بعد جيل في إطار تقاليد الكراهية نحو الشعوب المجاورة، وفي مقدمتها نحو الأتراك والآذربيين.»⁵



اللاجئون الأولون من أرمينيا في محطة السكة الحديدية بياكو. سنة ١٩٨٧. كما منعت الصحافة السوفيتية الذكر عنهم. ولم يهنم أحد بقضاياهم وكان أغليبتهم قد عاشوا في خلفية المحطة.

يحيد عن نشاطه في الاتجاه المذكور. والمحصلة أنه في عام 1967، وفي مؤتمر دشنكتستيون التاسع عشر، تم الإعلان بصورة نهائية عن نبيذ الحزب للأعمال المعادية للسوفيت (4)، مما يشهد على وجود اتفاقيات سرية بينه وبين القيادة السوفيتية. إن نبيذ الحزب للأعمال المعادية للسوفيت يُعد بعض الشيء رد «العرفان» من «دشنكتستيون» إلى قيادة الكرملين، مقابل دعمها لما يُسمى «إبادة الأرمن».

وبصورة نهائية تم تشكيل سياسة دشنكتستيون الجديدة في عام 1972 في فيينا. في المؤتمر العشرين. وكما أكدت عليه الوثائق التي أقرها دشنكتستيون، فقد أعلن التمسك «بمبادئ القومية، والاشتراكية والثورية»، والإعلان عن هدف السياسة الرئيسي في «الحفاظ على القومية وخلق الشروط المواتية لازدهارها»، إلا أنه وطبقاً لاعتقادات القادة الدشناك، فإن تحقيق هذا الهدف يعنى «إقامة أرمينيا الحرة المستقلة الموحدة داخل تلك الحدود التي خطها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ف. ويلسون، على أن تتضمن في تشكيلها قاراباغ الجبلية وناختشوان.»⁴

وفي ظل هذا الأمر، ينبغي الأخذ في الاعتبار أن حزب دشنكتستيون كان يعمل في الخارج ليس فقط باعتباره منظمة سياسية خاصة، ولكنه أيضاً تمتع بشبكة عريضة من المؤسسات التعليمية-الثقافية، والمدارس، والكليات، والمسارح، والمراكز

ومع الأخذ في الاعتبار أن الأرمن كانوا يمثلون القومية الوحيدة في الاتحاد السوفيتي التي تمتع ممثلوها بفرصة عقد الروابط مع الأرمن المقيمين بالخارج على نحو فعلي دون عوائق، إلا أن الدعاية القومية لحزب دشنكتستيون استطاعت التوغل بسهولة إلى أرمينيا السوفيتية أيضاً، لتغرس وتدعم المزاج المتطرف القومي التوسعي في المجتمع الأرميني، فيما يتصل بالأراضي الأذربيجانية.

والأكثر من ذلك أن الأعمال المطابقة لتلك الأمور قد جرت في أرمينيا السوفيتية ذاتها. وقد اجتذبت قسماً كبيراً من المثقفين الأرمن الذين لم يتركوا فرصة للإعلان عن أن القسم الجبلي لقاراباغ وناختشوان يمثلان «أراضي أرمينية قديمة». وفي هذا الإطار يكفى التذكرة بالعديد من مؤلفات المنظرين التي صدرت في فترة ستينيات-ثمانينيات القرن العشرين تحت ما يُسمى (ضم قاراباغ إلى أرمينيا) س. كابوتكيان، وز. بليان، والتي قام فيها أولئك الباحثون الفاسدون «بإثبات تبعية قاراباغ وناختشوان للأرمن». وقد تغلغت هذه الأفكار المُلفقة إلى الإصدارات الأكاديمية أيضاً، حيث أعلنت قاراباغ وناختشوان باعتبارهما «جزءاً من أرمينيا التاريخية»⁶. وفي ظل هذا الأمر تم في الإتحاد السوفيتي الإجهاض الصارم لكل محاولات ممثلي المثقفين الآذربيين في فضح مثل هذه التصورات لدى «الباحثين» الأرمن. ويعد هذا مثال ساطع على «ازدواجية معايير» القيادة السوفيتية فيما يتصل بشعوب جنوب القوقاز.

وفي الحديث حول جذور النزاع الحالي في قاراباغ، فلا ينبغي إهمال تلك الحقيقة التي تفيد أنه في فترة الستينيات-الثمانينيات من القرن الماضي، كان حزب دشنكتستيون يتمتع



بل أيضاً بين الأقليات الأرمينية. وقد آمن القادة الأرمن على وجه الخصوص وبدرجة أكبر في واقعية تنفيذ الخطط الخاصة باغتصاب المزيد من الأراضي الأذربيجانية. وليس هناك ما يدعو للدهشة إزاء حقيقة أنه في ستينيات القرن العشرين تحديداً، نشطت بصورة خاصة محاولات تأسيس الإدارة الأرمينية للقسم الجبلي من قاراباغ لناختشوان أيضاً. وفي تلك السنوات أصبحت قيادة أرمينيا السوفيتية تعلن بصورة أكثر انفتاحاً وتكراراً وفي كل المننديات السوفيتية، عن مطالبتها بالقسم الجبلي من قاراباغ (3، ص 438).

وفي نفس الوقت قامت القيادة الأرمينية بمبادرة وتقديم العديد من العرائض للقيادة السوفيتية حول مطالبها في إخضاع قاراباغ وناختشوان ليريفان. والأكثر من ذلك، فعبر ستينيات القرن العشرين وفي ظل دعم يريفان، أُثيرت الفوضى في قاراباغ أكثر من مرة، وارتفعت المطالب المناهية بضم هذا الإقليم الأذربيجاني إلى أرمينيا. وفي سياق تلك الفوضى كان الأذريون المسالمون هم الجانب الذي يتعرض للمعاناة بصورة عامة (3، ص 438).

وفي هذا السياق، يصعب الحكم على هذه الحقيقة أيضاً بالصدفة، وهي أنه لتلك الفترة تحديداً تعود التغييرات الجذرية في الخط السياسي «دشكتستيون». فكما هو معروف، وحتى منتصف الستينيات انتهج هذا الحزب خطأ صارماً معادياً للسوفيت. غير أنه بداية من منتصف الستينيات، بدأ تدريجياً

المحورى فى أنشطتها قد لعبته بلا شك الخطط الماضية بعيدة المدى للقيادة السوفيتية. فالقضية هنا أن دوائر محددة فى قيادة الكرملين كانت تسعى بصورة قوية لاستخدام الأقليات الأرمينية الموجودة فى مختلف بلدان العالم، وذلك باعتبارها «طابوراً خامساً» للنظام السوفيتى. وفى المقابل كانت تلك القيادة على استعداد لإبداء بعض المرونة نحو الأرمن فى الاتحاد السوفيتى. وتمثلت أولى الخطوات نحو هذا الاتجاه فى القرار الذى أصدرته الحكومة السوفيتية فى أغسطس لعام 1961 حول تنظيم ما يُسمى (الإعادة إلى الوطن) للأرمن المقيمين فى الخارج إلى الاتحاد السوفيتى (2، ص 417). وتبع هذا الأمر موافقة القيادة السوفيتية على منح الشرعية فى الاتحاد السوفيتى للفكرة المختلفة حول «إبادة الأرمن». ولأقل تقدير، ففي ستينيات القرن العشرين حصل الأرمن على حرية العمل التامة للقيام بالدعاية ونشر أفكار الهذيان حول «إبادة الأرمن»، مما سمح لهم فى عام 1965 أن يحتفلوا بذكرى مرور خمسين عاماً على الأحداث الشهيرة التى جرت عام 1915 فى الامبراطورية العثمانية، وذلك على المستوى الحكومى بصورة دعائية كبيرة.

وبدءاً من ستينيات القرن العشرين اتسعت كذلك بصورة كبيرة الروابط بين أرمينيا السوفيتية والأرمن المقيمين بالخارج، مما منح فرصاً إضافية لتغلغل الأفكار القومية المتطرفة داخل الأقليات الأرمينية فى الاتحاد السوفيتى. وقد مهد كل هذا إلى تصاعد الهيستريا القومية ليس فقط فى أرمينيا السوفيتية حينذاك،

جذور النزاع في قاراباغ

المظاهرات الاحتجاجية في باكو. سنة ١٩٨٨. بمقتضى الأشعرة، يثق الناس بان المركز سيحل المشكلة

تحضيرية جرت على نطاق واسع خلال بضعة عشرات من السنين، من قبل المنظمات القومية الأرمينية وعلى رأسها حزب «دشنتستيون». فقد أعلن هذا الحزب منذ لحظة تأسيسه في عام 1890 عن أطماعه في الأراضي الأذربيجانية، وفي مقدمتها ناختشوان والقسم الجبلي من قاراباغ، والتي طبقاً لمآرب استراتيجيات «دشنتستيون» سيئة الصيت، ينبغي أن تمثل جزءاً من تشكيل «أرمينيا العظمى الممتدة من البحر إلى البحر».

ومنذ ذلك الوقت ونشطاء الدشناك لم يتوقفوا لحظة واحدة عن أنشطتهم الرامية نحو تحقيق تلك الخطط الموهوسة، وحتى في مرحلة سيادة النظام السوفيتي الشمولي، وعندما كان المناخ الاجتماعي السياسي بأكمله في الاتحاد السوفيتي، واقعاً تحت الإدارة الصارمة للنظام الحزبي السوفيتي، واصل الأرمين نشاطهم التخريبي فيما يتصل بوحدة أراضي أذربيجان. ويكفي الإشارة إلى أنه في العهد السوفيتي قام الجانب الأرميني بعرض قضية انتقال قاراباغ وناختشوان ضمن تكوين أرمينيا لخمس وأربعين مرة أمام القيادة السوفيتية. (1، ص 30)

وقد ازداد بصورة خاصة في ستينيات القرن العشرين نشاط المنظمات الأرمينية لاقتطاع الأراضي الأذربيجانية الأصلية. وكان هذا الأمر مرتبطاً بصورة جزئية بالفترة القصيرة «لعهد ذوبان الجليد أثناء قيادة خروشوف»، والذي قاد إلى بعض المرونة السياسية للنظام في الاتحاد السوفيتي، ومنح فرصاً محددة لظهور أنشطة المنظمات الأرمينية القومية. ولكن الدور



تعود بدايات النزاع في قاراباغ بصورة شكلية إلى فبراير لعام 1988، حيث أنه في 21 فبراير لعام 1988 تحديداً، أصدرت دورة المجلس الإقليمي لمنطقة قاراباغ الجبلية ذات الحكم الذاتي التابعة لجمهورية أذربيجان السوفيتية، قراراً حول خروجها من تشكيل أذربيجان، وانضمامها إلى جمهورية أرمينيا السوفيتية. غير أن هذا القرار كان مسبقاً بأعمال